نشاطـــــات

المبادرة العربية ـ الأفريقية للتضامن مع أهل دارفور: نداء المثقفين والفنانين العرب من أجل حماية السودان من التدخل الأجنبي

أحمد حلواني(*)

عضو اللجنة التنفيذية للجمعية العربية للعلوم السياسية.

ـ ١ ـ

لم يكن إقليم دارفور في جمهورية السودان معروفاً لدى الجمهور العربي والعالمي بالشكل الذي أخذه بالآونة الأخيرة إلا عند الاختصاصيين في التاريخ العربي ــ الأفريقي أو في جغرافية القارة الأفريقية.

وإذا كان السودان قد شكّل ركناً أساسياً في الخريطة العربية ــ الأفريقية، فقد بقيت قضية جنوبه وتمرد قبائله على الإدارة المركزية في الخرطوم مثار قلق مشوب بمعلومات متناقضة عن إمكانات الحل، وآثار هذا التمرد في الاستقرار السياسي للسودان الحديث بعد استقلاله، وقرار فك ارتباطه عن مصر بعد ثورة تموز/يوليو ١٩٥٢.

وفي أعقاب وصول السلطة الحاكمة في الخرطوم والجيش الشعبي لتحرير جنوب السودان إلى اتفاق أعطى الجنوب بعد وقف القتال مرحلة انتقالية تمتد حتى عام ٢٠١١، حيث يتم إجراء استفتاء يقرر فيه الجنوبيون مصيرهم بالانفصال عن السودان أو بالبقاء ضمن جمهورية السودان مع احتفاظهم بحكم ذاتي في إقليمهم ضمن شروط ومواصفات تم الاتفاق عليها.

وقد تنفّس العرب والأفارقة الصعداء في أعقاب وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ، وبدأت الحياة تعود إلى مجراها الطبيعي بين الشمال والجنوب بتجاوز الحساسيات التي نشأت عبر مسيرة الاقتتال.

وأخذ النشاط الاقتصادي يستعيد أنفاسه ليرخي نتائجه المثمرة على السودانيين كافة، وعلى القطر بشماله وجنوبه وفي جميع أطرافه وأقسامه.

وفجأة تبرز مشكلة جديدة مثيرة

(*) ساهم الكاتب في هذه المبادرة العربية ــ الأفريقية.

الغبار الصحراوي الساخن، ناثرة رمال الصحراء الجارحة على كل الأطراف المحيطة بإقليم دارفور، ويبدو أن المشكلة التي كانت تحتاج إلى علاج دوائي وضمادات إسعافية، صُبّ عليها الزيت الحارق بقصد زيادة الإشعال وخلق اضطراب جديد ليكون بديلاً من هدوء الجنوب، فيشغل الحكومة المركزية، ويمنع الشعب السوداني من العيش الهنيء والاستقرار، ويعيد حالة الاضطراب والقلق إلى الحياة السودانية كلها.

تقسم دارفور، أو سلطنة دارفور، كما عرفت عبر التاريخ، حالياً إلى ثلاث ولايات ضمن التنظيمات الإدارية النافذة.

إنها تمتد شمالاً عبر الصحراء الكبرى، فتتصل حدوداً مع ليبيا، وتفصلها عن مصر ولاية دنقلة، وغرباً تتصل بالتشاد، وجنوباً بوسط أفريقيا وأعالي النيل، وتتداخل مع كردفان، حيث تشكل لها الصنوة والتوأمة. ومن كردفان تعبر روحياً إلى الشرق، إذ تتصل بالأراضي المقدسة في الحجاز، وبالنسب إلى باب المندب في اليمن، وبالروح الصوفية حتى تصل إلى العراق وما بعده وصولاً إلى جيلان.

ينتسب سلاطين دارفور إلى العباس بن عبد المطلب، وقبائلها لا تزال تحتفظ بلهجتها العربية الخالصة واليمنية الواضحة، وأهلها هم حملة كسوة الكعبة وحماتها. وقد جعلت حيوية أهلها من تفاعلات السودان جزءاً من تكويناتها، فصار الجزء هو الكل، والكل هو الجزء.

تصل مساحة دارفور إلى نصف مليون كم^{2}، أي ما يساوي خمس مساحة السودان كله. وهي تمتد بين خطي عرض ١٠ ــ ٢٠ شمالاً، وخطي طول ٢٢ ــ ٢٧ شرقاً، وقد جعلها موقعها الوسطي منطقة انتقالية تربط شمال أفريقيا بمنطقة حوض النيل في غرب أفريقيا. وهذه العلاقة المكانية أثّرت في تكوين حركة السكان إلى جانب التكوين الاقتصادي، وبالتالي السياسي.

وتمثل دارفور الفاصل الأكبر بين حوض النيل وحوض شاري على الحدود التشادية ــ النيجيرية. وقد درّ عليها هذا الموقع الذي مدها بنشاط زراعي محاصيل كبيرة من الذرة والدخن والخضروات والفواكه (ولا سيما المانغا) والموالح، بالإضافة إلى تربية الحيوانات. ولذلك شُبّه مناخها بمناخ حوض البحر المتوسط.

ومنذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي شكّل السلطان سليمان، الملقب بصولونج، بعد اندماج أسرة الكيرا بأسرة الفور، سلطنة في المنطقة سميت سلطنة الفور، ومنها أخذت التسمية، إذ أصبحت المنطقة كلها باسم دارفور.

وسعت هذه السلطنة إلى الدخول في تحالفات كبرى مع إمبراطورية كانن وبورنو في الغرب، أو مع تحالف الفونج الذين يعودون في أصولهم إلى قبائل جنوب السودان، وعلى رأسهم الشلك مع قبائل جنوب النيل الأزرق، إذ انضم إلى تحالفهم تجمع القبائل العربية من منطقة النيل بقيادة عبد الله جماع، وكوّنوا مملكة السنار الإسلامية بزعامة الفونج الذين كانوا ملوكاً لها بينما صار العبدلاب والهمج وزراءها، إذ انضمت إليهم بقية أقاليم السودان.

ـ ٢ ـ

بعد اكتشاف الأمريكتين، وسقوط الأندلس، وقيام تجارة الرقيق في غرب أفريقيا، والعذابات الكبيرة التي دفعت ثمنها الشعوب الأفريقية، وسقوط الإمبراطورية العثمانية، وصعود الاستعمار الأوروبي، وقيام حملة نابليون بونابرت، حاول نابليون استمالة سلطان دارفور مع باقي الحكام المسلمين في دعوته إلى قيام تحالف عربي إسلامي ـ فرنسي، إلا أن دارفور بقيت مثالاً للمقاومة الإسلامية في أفريقيا ضد الاجتياح الأوروبي للعالم الإسلامي. وكان السلطان علي دينار أحد زعماء مقاومة الاستعمار البريطاني من ضحايا العنف الذي قاده كتشنر على الرغم من محاولة الالتفاف عليه عن طريق الوعود المقدمة إلى الشريف حسين، إلى أن تمكنوا من اغتياله، فاستشهد في عام ١٩١٦، وسقطت بذلك دارفور بيد المستعمرين البريطانيين. وكانت بذلك آخر معقل في السودان يسقط في أيديهم، إذ لم يتمكنوا من السيطرة على دارفور إلا بعد نحو عقدين من احتلالهم الخرطوم.

والمعروف أن الثورة المهدية ضد الاستعمار البريطاني خرجت من دارفور أيضاً، وكان لدارفور وشعبها أثر فعال في حركة الجهاد في المناطق المجاورة لها، ولا سيما في نيجيريا والتشاد.

وعلى هذا، فقد كان لدارفور دور أساسي في حركة المقاومة والتحرير السودانية، وبالتالي في الحياة السياسية والاجتماعية للسودان كله. وقد شكل شعب دارفور باستمرار مع قبائل السودان كله مجتمعاً متآخياً اختلطت فيه الأنساب والقبائل والمجتمعات، بحيث شكلوا عبر التاريخ الحديث والمعاصر مجتمع السودان.

وعلى الرغم من الفوارق التي حاول الاستعمار الغربي زرعها بين شعب دارفور والدول المجاورة، ولا سيما في أفريقيا الغربية حتى التشاد، حيث كانت فرنسا تسابق بريطانيا لتصل عبر دارفور إلى البحر الأحمر، فقد بقي لأهل دارفور تأثير كبير في محيطهم، ولا سيما في التشاد، وبقيت دارفور في ظل الحكم البريطاني إحدى مديريات السودان التسع (ست ولايات في الشمال من بينها دارفور، وثلاث في الجنوب).

والمعروف أن خطة التنمية في السودان خلال الحكم البريطاني كانت تخطط وفق مصالح الصناعة البريطانية وحاجياتها. وهكذا أهملت دارفور، ولم تستطع حكومات الاستقلال أن تغيّر كثيراً من نمط الحياة الاقتصادية السائدة بسبب الدخل المحدود والميزانية الضئيلة لدولة السودان المستقلة. وجاءت حركة التمرد في جنوب السودان لتشكل إعاقة كبيرة في وجه الإدارة المركزية وخطط التطوير التنموي، إضافة إلى الانقلابات العسكرية وعدم الاستقرار السياسي.

وبعد اتفاقية السلام مع الجنوب والتوجهات العالمية الجديدة تجاه القارة الأفريقية، والسباق العالمي للسيطرة على مصادر الطاقة والثروة فيها، صار السودان نقطة ارتكاز جديدة سواء في الدخول إلى القارة أو في منع وجود دولة قوية في قلب أفريقيا يمكن أن يكون لها تأثيرات في مراكز القوى المستقبلية.

لقد بدأ التواصل مع سكان المناطق البعيدة عن المركز أو العاصمة في محاولات لإثارة الحساسيات وتكبير نقاط الاختلافات سواء الاقتصادية أو العرقية أو الدينية أو القبلية، ولا سيما في المناطق التي يمكن أن يكون لها تأثير في الدول المجاورة، فكانت دارفور هي الإقليم المستهدف، وكان استثمار مواسم الجفاف بتأثيراته الاقتصادية المفجعة، وكان اشتعال النزاع بين الرعاة والمزارعين.

وعلى الرغم من أن مثل هذه النزاعات كانت مثار اشتعال بين سنة وأخرى، إلا أنها لم تكن تستثمر خارجياً، كما حدث في المدة الأخيرة، فكان التهييج القبائلي والعرقي والنتائج المأساوية في التهجير واللجوء والتشريد والنهب والتخريب المتبادل.

وبدلاً من أن يعمد المجتمع الدولي إلى مساعدة حكومة السودان على إخماد نار الفتنة، وتقديم المساعدات الإنسانية، ودراسة إمكانية وضع خطة تنموية للإقليم بمساعدات دولية كبيرة، عمدوا إلى عكس ذلك بصبّ الزيت في مواقع اشتعال الفتنة، لتزيد من لهيبها، ولتخلق مشكلة سياسية تربك السودان بعد أن بدأ يلملم جراحه الجنوبية. لقد انفتح جرح جديد بحيث صار لزاماً على الإخوة والأشقاء والأصدقاء أن يتداعوا إلى تضميده والعمل على نشر أجواء المعالجة الموصلة إلى الشفاء، وإلى المساعدة على تحقيق مناعة وبناء تنموي سليم على جميع الصعد الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والسياسية، بما فيه الإدارية.

ومن هذا المنطلق، وإلى جانب الجهود العربية، ولا سيما المصرية والليبية والسعودية، مع حكومة السودان، والجهود الأفريقية المتمثلة بالاتحاد الأفريقي، صدرت مبادرة من المثقفين العرب أعلنها المجلس القومي للثقافة العربية من الرباط، بالدعوة إلى مبادرة أطلق عليها المبادرة العربية ـ الأفريقية للتضامن مع أهل دارفور في السودان تمثل فيها مثقفون من غالبية الأقطار العربية، بالإضافة إلى فنانين كبار، كان من بينهم الفنان محمد منير، والفنان هاني شاكر، والفنانة شيرين، بالتعاون مع المنتدى العربي ـ الأفريقي في الخرطوم، إذ قاموا بزيارة إلى مدينة الفاشر، المركز الإداري لولاية دارفور، ومعسكري أبو الشوك والسلام القريبين منها، والتقوا بعدد كبير من النازحين، وبقيادات إقليم دارفور، وعدد من الفعاليات الشعبية فيها، حيث اطلعوا على الأوضاع الحياتية هناك.

كما عقد أعضاء المبادرة ندوة حوارية حضرها عدد كبير من المثقفين ووزير الدولة للشؤون الثقافية، قدم فيها ناصر السيد، المفكر والأستاذ الجامعي السوداني بحثاً بعنوان: «دارفور، التاريخ والقضايا والطريق»، وشارك فيها أعضاء وفد المبادرة بالمناقشات، كما عقد لقاء آخر مع قيادات حزب المؤتمر الوطني الديمقراطي الحاكم خلال رحلة نيلية تم فيها التباحث والمناقشة حول أسلوب المعالجة السياسية لقضية دارفور والآفاق المحتملة والإمكانات المتاحة أمام عملية التوافق الوطني السوداني في ضوء تجربة حل قضية الجنوب، مستذكرين أن الإشكالات القبلية في دارفور كانت تحدث

باستمرار عبر تاريخ المنطقة، إلا أن التدخل الدولي هو الذي ضخّم المشكلة وصبّ عليها الزيت وأوصلها إلى مجلس الأمن، في حين أن قضية الجنوب بقيت مثارة لمدة أكثر من عشرين عاماً من دون أن يهتم بها مجلس الأمن، الأمر الذي يشير إلى تعمُّد إثارة الإشكالات أمام السودان والحكم القائم فيه، وفق وجهة نظر حزب المؤتمر الوطني.

ـ ٣ ـ

وقد عبّر كل من أحمد عبد الرحمن، رئيس مجلس الصداقة السودانية مع الشعوب والوزير السابق والشخصية السودانية المعروفة على الصعيدين السياسي والثقافي، وكذلك الأستاذ الميرغني، عضو مجلس رئاسة الدولة السابق ورئيس المنتدى العربي ـ الإفريقي، وعدد كبير آخر من الفعاليات السياسية الشعبية والثقافية، عن تقديرهم لمبادرة المجلس القومي للثقافة العربية للتضامن مع السودان ودارفور، وأكدوا أهمية العمل الثقافي في نشر الوعي العام عن قضية دارفور، وما يمثله السودان من حالة تواصل عربي ـ أفريقي، وبخاصة أن أكثر من ٧٥ في المئة من أبناء الشعب العربي يوجدون في القارة الأفريقية ذات الأهمية الاستراتيجية اقتصادياً وجيوسياسياً، وأنه على الرغم من تأخر هذه المبادرة على الصعيد الشعبي والثقافي العربي، فإنهم ينظرون إليها كبداية مهمة على صعيد تمتين التواصل بين قضايا الأمة العربية، تأكيداً لوحدة هذه الأمة ومستقبلها الاستراتيجي، وتمتيناً لعناصر مواجهة المخططات التي تستهدفها.

وقد صدر عن المبادرة بيان ختامي أكد أهمية توسيع دائرة المشاركة للاهتمام بقضية دارفور، والحرص على إيجاد الحلول التوافقية في إطار توضيح دلالات مفاهيم الهوية والعروبة والإسلام والأفريقانية ومشروع النهضة العربية.

كما أعلن البيان الختامي عن إنشاء هيكل مؤسسي للمبادرة العربية ـ الأفريقية للتضامن ومواصلة أعمالها بروح تتوخى العناية بالقضايا العربية ـ الأفريقية بهدف عدم ترك الفرصة للمخططات المعادية وللمساهمات المشبوهة.

ودعا المثقفون العرب إلى المساهمة في هذا العمل التضامني لمواجهة الأخطار، ونقل العمل الشعبي العربي ـ الأفريقي إلى المستوى الفاعل.

كما وجهت المبادرة نداء إلى كل المثقفين والمناضلين والجماهير في الوطن العربي وأفريقيا، بيّنت فيه أن نجدة المتضررين وتقديم الإسعاف والمساعدة إلى أبناء دارفور لا ينبغي أن يتخذا ذريعة لضرب كيان السودان واستباحة حرماته.

وركز البيان في ندائه على النقاط التالية:

١. مطالبة المثقفين العرب ومثقفي العالم كافة بالإعلان بمختلف أشكال التعبير والتواصل عن رفضهم للتدخل في شؤون السودان الداخلية والدفاع عن وحدته ودوره الإيجابي في العالمين العربي والأفريقي.

٢. تسجيل موقف بالإبراق إلى

السفارات والبرلمانات والرؤساء المعنيين لرفض التدخل والعدوان.

٣. تشكيل لجان تضامن مع السودان لتعبئة الرأي العام ضد العدوان والحصار، ومن أجل دعم الأبرياء والمتضررين في دارفور.

٤. القيام بالحملات والجهود الثقافية والإعلامية والفنية والاقتصادية لجمع التبرعات لأهل دارفور.

٥. التواصل مع الحكومة والمعارضة والحركات والمنظمات النقابية والشعبية من أجل المصالحة، وتوفير مناخ السلام، وإيجاد الحل عن طريق بناء المشروع الوطني الديمقراطي بعيداً عن التدخل الخارجي وفرض الأمر الواقع.

٦. الضغط على الحكومات العربية ـ الأفريقية لتحمل مسؤوليتها بدعم الاتحاد الأفريقي ورفض التدخل الأجنبي والعمل على دمقرطة الأوضاع الداخلية.

خاتمة

إن الاهتمام بالشأن السوداني في إطار علاقته ومكانته العربية والأفريقية هو أمر يدخل في إطار الوجود الحضاري العربي كله الذي تحاول السياسات الدولية القائمة حالياً تفتيته، لا بل تذويبه لإنهاء حضوره وفاعليته، نظراً إلى قوة تأثيره عبر المسيرة التاريخية في منع الهيمنة الاستعمارية والوقوف في وجه نهب خيرات الشعوب.

ولعل في هذه المبادرة من المثقفين العرب ما يؤشر على حيوية الحضور العربي الذي يصعب تذويبه، والذي أثبت إمكانات تحقيق نهضته على الرغم من كل الصعوبات المفتعلة سواء في الوجود الإسرائيلي في فلسطين المحتلة أو في إثارة العصبيات القبلية والإثنية والدينية والمصلحية الضيقة والعمالة المباشرة.

إن أسباب النهضة العربية لا تزال حية في قلوب الجماهير العربية، قادرة على الفعالية والمواجهة، سواء باستثمار القدرات الكامنة أو استنهاض قدرات الشباب الحية، أو بالتعاون مع جيران الأمة الذين يشكلون حلفاء التاريخ والمصير المشترك، سواء في آسيا أو أفريقيا أو البحر المتوسط أو على الصعيد الإنساني كله وهو ما يحتاج إلى فعالية تواصلية بين المنظمات والجمعيات والمؤسسات المدنية والحكومية على السواء، العربية والإسلامية والأفريقية والمتوسطية. ولعل تواصل المثقفين ودورهم المؤثر يمكن أن يشكل عنصر فتح طليعياً، ليأخذ هذا التواصل أبعاده على الصعيد الجماهيري بكل ميادينه الحياتية في إطار المفهوم الحضاري الإنساني الذي تضطلع به وتتطلع إليه نخب النهضويين العرب في دربهم الشاق والطويل ■